

تصور سعادة الإنسان وشقائه، في الفلسفتين الهندوسية والبوذية

وائل عبد الرحمن عبد العزيز القاسم

أستاذ محاضر بالكلية التقنية بالمملكة العربية السعودية

باحث دكتوراه في الفلسفة

الملخص

تؤكد كلٌّ من البوذية والهندوسية على خلود الروح وبقاءها الأبدي. ووفقًا للبراهمية، أو الهندوسية، فإن الروح لا تموت أبدًا؛ إنما يموت الجسد البشري فقط. وبهذا المعنى، لا يختلف اللاهوت البوذي عن البراهمية؛ فوفقًا لهما، الموت حدثٌ عابرٌ يؤثر في الجسد فقط، ولا أثر له على الروح. ولذلك، ترى البوذية أنه من الغريب أن يُثير من يُقرّ بخلود الروح ووجودها الأبدي مسألة القتل والموت. وبناءً على فكرة أن النيرفانا، أو الخلاص التام في الحياة، يجب بلوغه من خلال مجموعة من المبادئ الأخلاقية التي يجب على الناس اتباعها لتحقيق السعادة والسلام، تدرس كلتا الفلسفتين الفكريتين الهنديتين موضوع السعادة والحزن. ولذلك، تشبه هذه الأفكار نوعًا خاصًا من الفلسفة الصوفية، التي تُقارن بين مختلف الأديان والمعتقدات.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة البوذية، الفلسفة الهندوسية، الجسد البشري، الروح، الموت، السعادة، الحزن

Abstract

Buddhism and Hinduism both affirm the soul's immortality and eternal persistence. According to Brahmanism, or Hinduism, the soul never dies; only the human body does. In this sense, Buddhist theology is no different from Brahmanism; according to them, death is a transient occurrence that just impacts the body and has no bearing on the soul. Buddhism, therefore, considers it odd that someone who acknowledges the immortality and eternal presence of the soul would bring up murder and death. Based on the idea that nirvana, or complete salvation in life, must be attained via a set of moral principles that people must follow to achieve happiness and peace, both Indian schools of thought study the subject of happiness and sorrow. Because of this, these ideas resemble a particular kind of Sufi philosophy, which draws comparisons between various religions and faiths.

Keywords: Buddhist philosophy, Hindu philosophy, human body, soul, death, happiness, sadness

مقدمة:

لقد جمعتُ الفلسفة الهندية -يمكن القول- بين الفضول التأملية ومتعته من ناحية، وبين محاولة التغلب على عذابات الإنسان من ناحية أخرى. فكثير من فلاسفة الهند وحكمائها أحبوا الحكمة وتلذذوا بالتفلسف لذاته، ولديهم فضول تأملي كبير؛ ولكن ما يميزهم حقاً هو أنهم وجَّهوا كلَّ ذلك غالباً في سبيل حل مشكلات البشر والاجتهاد في القضاء على متاعبهم وهمومهم المختلفة، وبالتالي تحقيق السعادة لبني الإنسان.

والفلسفة الهندية تؤكد وتدعو دائماً وأبداً إلى ضرورة ضبط الإنسان لـرغباته، وتشدد على أن الانضباط الذاتي والسيطرة على النفس هو الشرط الأول للسعادة والحياة في خير وسلام، فضبط النفس والابتعاد عن المبالغة في إشباع الرغبات هو سبيل الراحة الأول وسبيل القضاء على معانيات الإنسان.

كما يهتم فلاسفة الهند بـ"الذات" جداً، ويصرّون على ضرورة فهم الإنسان لذاته أولاً، ليستطيع السيطرة عليها بعد ذلك، وكبح جماح نزواتها ورغباتها المشتعلة، التي تبعده عن السعادة وتقربه من الهم والشر، إذا عجز عن السيطرة عليها.. ومن هنا ركزت الفلسفة الهندية على (ردع النفس وترويضها) وتحجيم طلباتها الطامعة التي لا تنتهي، فذلك عند غالبهم هو الطريق إلى كل خير، ولا يمكن للإنسان تحقيق ذلك إلا بفهم ذاته فهماً صحيحاً عميقاً.

أولاً/ السعادة والألم الإنساني في الفلسفة البوذية:

يمكن القول أن مسألة السعادة والألم هي (المسألة الجوهرية الكبرى) في الفلسفة البوذية. بل إننا لن نبالغ لو قلنا: كل ما فعله بوذا هو أنّه بحث عن السعادة واجتهد في القضاء على الألم، وأنشأ لذلك مذهباً فلسفياً. وبالتالي لا يمكن تقديم الهندوسية البراهمانية على البوذية في موضوع (السعادة والألم الإنساني)، الذي يمثل المحور الأساسي الكبير الذي قامت عليه الفلسفة البوذية كلّها.

حيث يبدو أن البوذية من بدايتها إلى نهايتها، ليست أكثر من مذهب يدور في فلك (البحث عن السعادة وكيفية الهروب من الشقاء)، والكثيرون حين يُعرّفون ويشرحون البوذية لا يبتعدون عن ذلك كثيرًا. ومن ذلك مثلاً تأكيدهم على أنّ البوذية فلسفة تسعى لإيصال الإنسان إلى حالة السعادة الكاملة الخالدة التي يسمونها (النرفانا). وقد اتخذت النرفانا عندهم معنيين متلاحقين ومرتبطين مع بعضهما البعض، الأول هو السعادة الأولى الدنيوية، والثاني هو السعادة التالية الثانية؛ فالنيرفانا بمعناها الأول تعني وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحي بتطهير نفسه والقضاء على جميع رغباته المادية ليصل إلى السعادة وهو على قيد الحياة، والسبب عند البوذيين هو أنّ الأغراض والمطامع الشخصية الباطلة هي التي تجعل الحياة دنيئة أو تعيسة أو مروعة. والنرفانا بمعناها الثاني يعني وصول الإنسان إلى السعادة بعد الموت، إذا نجح قبل موته في إنقاذ نفسه من ربة (تكرار الموالد)، وذلك بالزهد في كل شيء، والقضاء على جميع الرغبات، والتوقف عن عمل الخير والشر (الخطيب، 2009).

ويظهر من تعريفات البوذية أيضًا، أنّها مذهب فلسفي جوهره الأساسي فكرة الألم، وغاية مؤسسه "بوذا" هي النجاة بالإنسان من الألم (عويضة، 1994). ومما يزيد تأكيد صحة هذا، وصحة كل ما ورد في الأسطر القليلة السابقة، تسليط الضوء على سبب نشأة البوذية، فلتأسيس هذا المذهب قصة مهمة جميلة اتفقت على إثباتها -بصياغات متقاربة- عشرات المراجع التي عُيّنت ببوذا وفلسفته، ولا بد من إيرادها هنا بصياغة الباحث جمعًا بين عدة صياغات، بالشكل التالي:

بوذا هو شخصية فلسفية ملهمة، واسمه (جوتاما سد هارتا - بوذا) وهناك قصة ماثرة هامة جدا، تواترت في تأكيدها مصادر كثيرة موثوقة، تفسر لنا السبب الحقيقي الذي جعل "بوذا" يسير في هذا الطريق، أعني طريق الفلسفة التأملية الهادفة للقضاء على معانيات البشر، وهي -بصياغة الباحث الاختزالية الموجزة- أن بوذا ولد فوجد نفسه ابنًا لملك يحكم إمارة عظيمة.. وكان هذا الأب الحاكم، يبذخ على ابنه من كل الثروات وييسّر له الحصول على كل ما يشتهي من الملذات، من سكن القصور وأجمل زوجة ونساء خادمت وأموال طائلة؛ ليصرفه عن التفكير في

الآلام والصعاب ورؤية الوجه الآخر القبيح للحياة؛ لأن هذا الملك كان يعلم أن ابنه إذا أدرك شرور ومصائب العالم، قد يبتعد عن الملك والرفاهية، ويتجه إلى التقشف والزهد والحزن، وهذا ما لم يكن يريده هذا الأب. ولكن بوذا الشاب، كان يرى - أثناء تجوله بعربته الفارهة التي تجرها الجياد- كثيرًا من صور معانيات ومتاعب البشر، وكان يسأل سائق العربة كلما مرَّ بموقف لكبير سن يعاني من آثار الشيخوخة مثلاً، أو بموقف لمرضى يكابد ويلات المرض، أو بموقف فقير لا يجد قوت يومه.. وما شابه ذلك من أحداث. وكان هذا السائق يجيب بوذا بإجابات من قبيل: "أنتم يا سيدي ونحن أيضًا جميعنا من نوع قُدرٍ عليه أن يشيخ ويمرض ويموت".

وفي يوم من الأيام: مرَّ بوذا بعربته على رجلٍ حليق الرأس، تظهر عليه ملامح المتسكين، من هدوء وسكينة، ويلبس ثوبًا أصفر اللون، ويبدو قانعًا وفي حالة سلام وتصالح مع نفسه. فسأل بوذا سائق عربته عن هذا الشخص، فأجابه السائق: إنه من الأشخاص الذين "مضوا قدمًا" يا سيدي، فألحَّ الفضول على بوذا واقترب من الناسك وسأله: لماذا أيها المعلم يختلف رأسك عن رؤوس الآخرين وكذلك ملابسك لماذا ليست كملايسهم؟. فقال الناسك: أنا يا بني شخص مضى قدمًا. فقال بوذا: ما معنى هذا؟ فأجابه الرجل: أي أنني أصبحت متعمقًا في التجارب والتأمل والحياة الدينية، وضلعيًا في الأعمال الطيبة، ومحبًا ومكثرًا من الخير والسلوك الجدير من خلال خبراتي، التي علمتني أن أفضل حياة هي أن لا يتأذى مني أحد، وأن أشفق على كل كائن من الكائنات. تأثر بوذا كثيرًا بهذا الموقف، وأمر سائقه على الفور بالعودة إلى القصر، وأعلن أنه قرَّر أن يعيش بطريقة مشابهة، فحلق رأسه، ولبس ثياب النساك، ولم يعد يكثر كثيرًا بملذات الدنيا. ثم بدأ يزيد من التأمل تدريجيًا، حتى وصل إلى مرحلة الاعتكاف في تأمل "المعاناة" بكل أشكالها وصورها التي عرفها، ومن هنا كانت رسالته هي بذل أقصى الجهود لوقف كل معاناة أو التقليل منها قدر المستطاع، فشاع ذكره وذاع صيته، وبدأت من هنا أولُ الخيوط التي نُسجت منها الفلسفة البوذية (لفنسون، 2008).

ومن خلال ما سبق يظهر لنا جلياً أنّ المهمة التي اختارها بوذا لنفسه، كانت الوصول بالإنسان إلى السعادة عبر تخليصه من آلامه ومعانياته، فكيف نظر بوذا إلى هذه المسألة؟ وماذا نتج عن تفكيره فيها؟.

وجواب هذا -بنحو ما ورد عند كثير من الشراح- أنّ **(الحقائق الأربع النبيلة)**، هي زبدة ما قرره بوذا لمواجهة الألم وتخليص النفس من المعاناة والوصول بالإنسان إلى النور والراحة والفرح، بل قد يصح القول: إنّ هذه الحقائق -مع السبيل الثمانيّ التابع لها- هي خلاصة الفلسفة البوذية كلها.

والحقيقة هي أنّ المصادر تختلف في صياغة ذلك؛ ولكنّها تتفق في المعنى العام، وهو أنّ الحقائق السامية المقدّسة الأربع التي قررها بوذا لإيقاف المعاناة، هي كالتالي بصياغة شمولية:

أ- **الحقيقة الأولى: حقيقة أو طبيعة الألم:** هذه الحياة ألم وحزن، وعالم الإنسان كلّ ألم في ألم، ولا شيء في حياتنا غير العذاب والأوجاع؛ فالولادة ألم، والشيخوخة ألم، والمرض ألم، والموت ألم. والعلاقات مع الغير ألم؛ لأننا نرتبط بمن لا نحب، أو نفترق عمّن نحب. وفي تحقيق الرغبات ألم، وعدم تحقيقها ألم أيضاً... فكل حياة الإنسان آلام وشقاء (جورج حلو، 1997). صحيح أنّ فيها بعض الأفراح ولكن (استمرار الألم) وملازمته للإنسان، هو ما يجعل الحياة لا تطاق بهذا الشكل في نظر بوذا، ولذلك حاول تخليص الإنسان من الألم (ارفون، 1985).

ب- **الحقيقة الثانية: أصل أو منبع الألم:** الجهل هو منبع الألم وسببه؛ لأن الجهل يولّد الرغبات، والرغبات هي سبب الآلام. فكل ألم نجد خلفه رغبة معينة، مدفوعة بالجهل، والمقصد من الجهل هنا، هو الجهل الذي يمكن تفسيره بأنّه الاندفاع نحو الأعمال الباحثة عن إشباع تلك الرغبة التي تسبب الألم؛ لأن تلك الأعمال تتجم عنها رغبات وشهوات جديدة تكون سبباً في آلام أخرى وهكذا (زيغور، 2006).

ج- الحقيقة الثالثة: إبطال الألم والقضاء عليه: يكون ذلك بالتغلب على الجهل الذي يولد الرغبات المسببة للآلام.. فإذا زال الجهل مات التوق والشوق إلى الشهوات والرغبات التي ينتج عنها الألم، وبالتالي نقضي على الألم والشقاء والعذاب (جورج حلو، 1997).

ونلاحظ أن الحقائق الثلاث السابقة نظرية، أما الرابعة القادمة فهي عملية (عويضة، 1994). ويستطيع الباحث تلخيص كل تلك الحقائق الثلاث السابقة في قوله: (الألم موجود، والجهل سببه؛ لأنه يقود إلى الرغبات المؤلمة، فيجب علينا الانتصار على الجهل، لنرتاح وتزول متاعبنا وآلامنا المبنية على رغبات جاهلة).

د- الحقيقة الرابعة: السبيل المؤدي إلى إبطال الألم: وهو السبيل ذو الثماني شُعب الذي يُبطل العذاب، ويقود إلى السلام والسعادة "النرفانا" (جورج حلو، 1997)، فقد رسم بوذا هذا السبيل بشكل مَثَمَّن، وشعبه -في نظر الباحث- قد يصح تسميتها بـ (وسائل وأركان التغلب على الجهل المسبب للألم)، فمن يقطع هذه السبل يستأصل الجهل وما يرتبط به في مثلث أسباب الشقاء عند بوذا (الجهل والكره والشهوة) (زيغور، 2006). والشعب هي:

- 1- الفهم الصحيح. 2- التفكير الصحيح. 3- الكلام الصحيح. 4- العمل الصحيح. 5-
- العيش الصحيح. 6- الجهد الصحيح. 7- التيقُّظ الصحيح. 8- التركيز الصحيح. وقد قسَّمها البعض بأشكال مختلفة، كقولهم الجميل مثلاً: أ- الحكمة: وتشمل الفهم الصحيح، والتفكير الصحيح. ب- الأخلاقية: وتشمل الكلام الصحيح، والعمل الصحيح، والعيش الصحيح. ج-
- التركيز والاستغراق: وتشمل الجهد الصحيح، والتيقُّظ الصحيح، والتركيز الصحيح (جورج حلو، 1997).

- وهناك من يورد تلك الشعب بالشكل التالي أيضاً: 1- المعتقدات الصحيحة. 2- الأغراض الشريفة. 3- القول الطيب. 4- العمل الصالح. 5- اتباع خطة قويمية في الحياة وكسب العيش. 6- بذل الجهد الصادق. 7- الاهتمام. 8- صدق التأمل الروحاني (عبدالقادر، 1986).

وهناك من يوردها بصياغات أخرى كثيرة، والملاحظ هو أنهم يتفقون -ببساطة وبتلخيص الباحث- على أنّ هذا السبيل النبيل المؤدي للسعادة وإبطال العذاب، يطلبُ من الإنسان أن يبتعد عن كل الأقوال السيئة كالكذب والسبِّ مثلاً، وعن كل الأفعال السيئة كالقتل والسرقة مثلاً، وعن كل الأفكار غير الصحيحة، أي المخالفة للحقائق الأربع النبيلة وغيرها من التعاليم البوذية التي مرّت معنا في المباحث السابقة، وأن يخلّص نفسه من كل ذلك، وأن يعمل كل ما هو جميل ونافع للناس، وأن يكسب لقمة عيشه دون ظلم أو غش للناس أو المساس بحقوقهم، وأن يكون الإنسان صادقاً في كل مجهوداته وملتقناً لها لكي لا تضيع جهوده. مع ممارسة التأمل والرياضات الروحانية وما شابه.

والملاحظة المهمة هنا، هي أننا حين نتأمل (كلمة بوذا الشهيرة) عن هذه الحقائق الأربع، التي ألقاها على الرهبان البوذيين، نجد أنّه استخدم كلمة "عذاب"، مع كل حقيقة من هذه الحقائق؛ بالإضافة إلى أنّ كلماته فيها ولغته الحزينة المحبطة، تشعرُ الباحث أنّ بوذا كان مكتئباً وهذا ما جعله ينطق بهذا الكلام كردة فعل أو كتعويض عن نقص معين شعر به في نفسه، أو كانهفجار نفسي داخلي ترجمه إلى مذهب فلسفي:

يقول بوذا للرهبان: "إليكُم أيها الرهبان حقيقة معنى العذاب: الولادة عذاب والموت عذاب والمرض عذاب والشيخوخة عذاب، والاتحاد مع ما لا نحب عذاب، والانفصال عما نحب عذاب، وعدم إشباع الرغبة عذاب، والحقيقة أنّ أنواع التعلق الخمسة بالحياة (الجسد، الأحاسيس، التمثلات والأفكار والمعرفة، التي تشكّل الأنا) هي أيضاً عذاب". ثم يضيف بوذا: "إليكُم أيها الرهبان حقيقة مصدر العذاب: إنّها الرغبة في الوجود المفضية إلى من تجدد إلى تجدد، الرغبة في اللذة، الرغبة في الرغبة، الرغبة في العابر الفاني، إذا لا شيء خالد في الحياة الدنيا". ويضيف بوذا أيضاً: "إليكُم أيها الرهبان حقيقة إزالة هذا العذاب: إطفاء هذا العطش بإلغاء اللذة إلغاء كاملاً عن طريق طردها ورفضها والتخلص منها وعدم ترك أي مكان لها تحل فيه". ويختم بوذا بقوله: "إليكُم أيها الرهبان حقيقة السبيل الآيل إلى توقف العذاب: إنّهُ الممر المثمن، وفروعه

هي الإيمان الصحيح والإرادة الصحيحة واللغة الصحيحة والعمل الصحيح ووسائل العيش الصحيحة والتطبيق الصحيح والذاكرة الصحيحة والتأمل الصحيح" (لفنسون، 2008).

وفي هذا يمكن الإشارة إلى هناك احتمالية قوية أنّ بوذا كان مريضاً أو مصاباً ب (الاكتئاب الحاد) في بعض مراحل حياته، ثم شُفي منه، على النحو التالي:

1- يتفق أطباء وعلماء النفس على بعض الأعراض الرئيسية للاكتئاب، ومن أهمها كما هو معلوم للجميع ضعف الرغبة في الحياة، والخمول وضعف مستوى النشاط، وتوتر العلاقات الاجتماعية، ومشاعر اللوم والقسوة على النفس، والتفكير الانهزامي والإدراك السلبي للبيئة، والاستياء والكدر من الحياة وعدم البهجة فيها، والرغبة في الانعزال والميل للحزن (ابراهيم، 1998). وإذا تأملنا في حياة بوذا وقصته وكلماته التي مرّت معنا، فإننا نجد أنه على الأغلب قد عانى من تلك الأعراض أو من كثير منها على أقلّ تقدير.

2- يعتقد الباحث أنّ سبب إصابة بوذا بالاكتئاب، هو (الصدمة النفسية) التي حدثت له حين اكتشف حقيقة الحياة ومتاعبها في جولاته مع سائق العربة كما مرّ معنا في القصة السابقة، خاصة أنّ ذلك الاكتشاف الصادم جاء بعد سنوات طويلة قضاها في النعيم والترف داخل قصر والده، الذي بذل كل الجهود لمنع ابنه من اكتشاف وجود المعاناة والآلام والشقاء في هذا العالم.

3- يعتقد الباحث أنّ بوذا شفي من الاكتئاب في مرحلة متأخرة نسبياً، وهي المرحلة التي نادى فيها ب (الطريق الوسطي)، الذي سمح من خلاله لأتباعه بالاستمتاع بالكثير من جماليات الحياة، وتراجع من خلاله أيضاً عن أفكاره السابقة - التي نادى بها حين كان مكتئباً فيما يظهر - كفكرته السلبية التي تدعو إلى المبالغة في التقشف والزهد وإماتة الذات.

ثانياً/ السعادة والألم الإنساني في الفلسفة الهندوسية:

لعلنا نلاحظ أنّ النقاط المتعلقة بالسعادة في البراهمانية قليلة مقارنة بالبوذية من حيث الكم؛ ولكنّ من حيث الكيف فإن نقاط السعادة وفق تصوّر البراهماني الهندوسي، جاءت بارزة جدّاً رغم قلّتها، ويمكن تسليط الضوء على هذه المسألة بشكل شمولي مركز وبصياغة أكثر دقة، في النقطتين التاليتين:

1- الحقيقة الكبرى هي أنّ السعادة الكاملة في البراهمانية أو الهندوسية لا سبيل لها في هذه الحياة الدنيا، وإنما يحصل عليها الإنسان بعد الموت؛ إذا نجح في كسر دائرة التناسخ، واستطاع الاندماج في براهما والفناء فيه. مع ضرورة الانتباه إلى أنّ فئة قليلة من البوذيين أيضاً أخذت الفكرة من البراهمة، وقالت إنّ السعادة الكاملة تحصل للإنسان إذا حقق النرفانا بمعنى خاص دقيق عند هؤلاء، وهو الاستتارة والصفاء النفسي بعد الموت، إذا نجح الإنسان -عبر التقيد بالتعاليم البوذية- في الاندماج الكامل بالمخلّص بوذا (الخطيب، 2009).

واستحالة تحقيق السعادة الكاملة في هذه الحياة أمر متفق عليه تقريباً في الكتب البراهمانية، ومن النصوص الواضحة كمثال، ما نجده في الكتاب العظيم الذي يعدّه الهندوس أعظم كتاب ألف تحت السماء، كما يقول القديس الهندوسي المعاصر "سوامي رام تيرتها"، وهذا الكتاب هو كتاب: (يوجا واسستها - Yoga wasistha) فقد وردت فيه عدة نصوص عن (فلسفة السعادة) ومن أبرزها النصّان التاليان:

أ- "السعادة لا سبيل لها في هذا العالم، الذي خلقت كل نفس فيه لتموت، فكل شيء في هذا العالم سائر إلى الزوال والفناء، وجميع مسرات هذه الحياة ليست إلا خداعاً وأوهاماً، وقد سقطت الأفراح على الأحزان، أجل لم يشترنا أحد كما تشتري العبيد؛ ولكننا نعمل كأننا عبيد مسخرون" (شليبي، 2000).

ب- "ما الحياة إلا كنور السراج الموضوع في الخلاء، تلعب به الرياح من كل جهة، وليس بها الأشياء إلا كومضة برق تنير لحظة ثم تختفي إلى الأبد.. ما هي قيمة الجسد والأفراح والثروة والجاه والملك، إن كان محتماً علينا أن نموت عاجلاً أو آجلاً، وأن الموت سيقضي على كل شيء" (شليبي، 2000).

2- رغم إيمانهم بأن السعادة الكاملة القصوى لا تتحقق إلا بالاتحاد مع براهما، سعوا إلى تحقيق شيء من السعادة الجزئية في الحياة الدنيا أيضاً. ويمكن تسليط الضوء على أهم العناوين البارزة المرتبطة بالسعادة عند الهندوس في النقاط المركزة التالية:

أ- ارتباط السعادة بالأخلاق: فقد تكرر معنا كثيراً وبالتفصيل - أن العقيدة البراهمانية توصي الإنسان بالالتزام بفضائل وأخلاق معينة، ليصل إلى الراحة والسعادة والسلام الداخلي، وتحذره في المقابل من رذائل وسلوكيات ذميمة معينة؛ يرونها سبباً في الشقاء والتعاسة؛ فهذا -أي علاقة الأخلاق بالسعادة والشقاء في الدنيا وبعد الموت- هو الأساس الذي قامت عليه فلسفة الأخلاق عندهم.

ب- ارتباط السعادة بإلهة السعادة: وهذه الإلهة تسمى "آشا" أو (الفجر) كما اسلفنا وهي إلهة رقيقة حنونة تجلب الكثير من الجماليات والخيرات ومن ذلك السعادة.

ج- ارتباط السعادة بالنجوم: سبقت الإشارة إلى أن النجوم لها تأثير كبير في حياة الإنسان الهندي حسب عقيدتهم، من عدة جهات، فمن حيث السعادة والشقاء، يتعلقون بنجم "رُحل" السعد الأكبر، وذلك لرفعة مكانه وعظم جرمه، فهو الذي يُعطي البشر السعادة أو الشقاء في المقابل.

د- ارتباط السعادة بنظام الطبقات: وقد ظهر معنا ذلك بوضوح حين ذكرنا سابقاً أن فلسفتهم توجب على أصحاب بعض الطبقات السفلية أن يمتثلوا امتثالاً مطلقاً لأوامر ونصائح وتوجيهات البراهمة، أصحاب الطبقة العليا وسادة الدار العارفين بالكتب المقدسة والمشتهرين بالفضائل، فمن

يمتثل وينصاع لهم من أصحاب الطبقات الدونية ترجى له السعادة في حياته، وكذلك بعد موته ببعث أسمى وفق معتقد التناسخ.

هـ- ارتباط السعادة بالاتحاد مع براهما: وهذا يحدث بعد الموت، وهو الأهم عندهم والغاية الكبرى من فلسفتهم كما أسلفنا من قبل.

ورغم ورود الكثير من النصوص الهندوسية المتعلقة بالسعادة. ويمكن استخراج بعض النصوص المهمة في هذا الشأن من كتابهم المقدس كأمثلة، على النحو التالي:

1- نص يربط السعادة بعدم انتظار الجزاء على الأعمال والسلوكيات الحسنة، وهو: "الإنسان الذي يشعر بالسعادة والغبطة، هو ذاك الذي يعيش فترة من الزمن دون أن يكون سلوكه مشروطاً بعمل ما. يعمل بكل حماس دون غاية. دون انتظار لنتيجة أعماله" (الأوبانيشاد، 2008).

2- نص يرى أنّ سبب الشقاء هو أنّ غاية الكثيرين من أعمالهم هي الحصول على الذهب -أي المقابل المادي في فهم الباحث- دون اهتمام بالسعادة المنتظرة بعد الموت -أي الاندماج مع براهما في السماء والتتعم بالجزاء- وهو: "إنّ الغاية الأساسية لكثير من الناس في شقائهم وعملهم على الأرض هي الحصول على الذهب.. أمنية السعادة السماوية لا تحضرهم إلا لحظة القيام بالشعائر الدينية فقط" (الأوبانيشاد، 2008).

3- نص يحدد بوضوح ما أشرنا إليه سابقاً، وهو أنّ السعادة الحقيقية الخالصة لا تكون في الدنيا أبداً، وإنما تحصل بعد الموت عندما يرتقي الإنسان ليندمج مع براهما: "بسبب جهله يظن الإنسان أنّه الغشاء المادي لذاته الحقيقية، لكنه عندما يرتفع ويكتشف الحقيقة يصير واحداً مع البراهمن الذي هو السعادة الحقيقية" (الأوبانيشاد، 2008).

4- نص تفصيلي طويل، يؤكد أنّ الحواريين الذين يصلون إلى السعادة هم الذين يزهدون في كل شيء في الدنيا ولا يهتمون إلا بمعرفة البراهمن ومعايشته لتحقيق السعادة الأبدية به وبمعرفته، وهو: "يبحث الحواريون عن البراهمن، عن طريق الدراسة، الانضباط، الزهد. من يعايش البراهمن

يصير عَرَّافاً. ولكي يحقق الراهب أمنيته، لمعايشة البراهمن يزهد في الدنيا. عندما يلامس الحكماء بهجة الذات، لا يتمنون أبناء وبناتاً، ويقولون: ماذا سنفعل بأبناء وبنات؟ ونحن الذين وصلنا إلى الهدف الأسمى في الوجود وعاشنا الذات. التوق إلى أنجاب الأحفاد يتوق إلى الرغبة في جمع المال، وعندما يتحرر الإنسان من أمنية الحصول على أبناء وبنات وثروة، يدخل في عالم الزهد الكامل. هناك نوعان من الرغبة: رغبة في حياة المتعة في هذا العالم، أو رغبة في حياة البهجة والسعادة في العوالم الأخرى. الإنسان الذي يعايش الذات لا يمسه الخير ولا الشر. لا يفكر أنه عمل هذا أو ذلك. هذا الإنسان أعلى من الخير والشر. السعادة الأبدية -التي لا بداية لها ولا نهاية- عن طريق المعرفة الإلهية تظهر لمن عايش البراهمن، ولن تكثر ولن تقل عن طريق الأعمال. عسى أن يجد السعادة الأبدية كل من يبحث عنها" (الأوبانيشاد، 2008).

ويمكن أن نستخلص من كل ما ذكر أعلاه عن البراهمانية، أنها لا تختلف كثيراً عن تيارات الفلسفة الهندية المتعددة، التي تتفق تقريباً بشكل عام في مسألة (السعادة والشقاء) على أن الشقاء الإنساني سببه (الرغبات) التي يعجز المرء عن تحقيقها، كالفقر الذي تدفعه رغباته الجامحة للثراء، ولكنه يعجز عن ذلك. أو كالإنسان الذي لا يريد الموت؛ ولكنه يدرك في أعماقه أن الخلود في الدنيا مستحيل، وأن مصير البشر المشترك هو الفناء والرحيل. ومن هنا اتفقوا تقريباً على الحل أيضاً، فغالب فلسفات الهند ترى أن السعادة وانتهاء معاناة الإنسان لا تتحقق إلا إذا أدرك الإنسان بداية أنه ينبغي أن تتوافق رغباته مع الواقع، أو مع ما يمكن تحقيقه مستقبلاً، ولن يتمكن الإنسان من ذلك إلا إذا فهم نفسه وقدراته وإمكاناته ومؤهلاته ومرحلته العمرية أولاً، ثم فهم ما يحيط به في واقعه وفي الحياة بشكل عام. فكما وجدنا "الدهشة" هي الباعث الأساسي على الفلسفة عند أرسطوطاليس كما هو معلوم ومشهور، وكما وجدنا "رهبة الموت" مثلاً هي الدافع أو السبب الأساسي الذي حمل على التفلسف كما يقول الألماني بوختر. فعلى هذا الأساس يمكن أن نستنبط - ببساطة وتلخيص - أن (قهر المعاناة) هو الدافع الأقوى الذي وُلدتْ بتأثيره الفلسفة في الهند، إن صح التعبير. وفي الحقيقة يجب أن تحترم هذه الفلسفة كثيراً (كفلسفة وليس

كعقيدة دينية)، فقد نجحت إلى حد كبير في تخفيف معاناة البشر ومتاعبهم المختلفة في هذه الدنيا بدليل الأعداد الكبيرة التي تعتق الفلسفتين الهندوسية والبوذية وغيرهما، في داخل بلاد الهند وخارجها.

يرى بعض مفكري الهند وخصوصاً القدماء، أن الإنسان خلق للمأساة، وأن دور الفلسفة هو (التخفيف من هذه المأساة) فقط، ويوردون في ذلك كلاماً لافتاً، من ضمنه أننا مهما حاولنا فلن نستطيع القضاء النهائي على معاناة البشر ومآسيهم؛ لأن كل إنسان لا بد أن يعيش شيئاً من المأساة في حياته، وليس لهذه المآسي والمتاعب أي حل كامل في الفلسفة إلا موت هذا الإنسان في نظرهم؛ ولكنهم يرون أن الفلاسفة مطالبون بوضع الحلول الجزئية، التي تساعد الإنسان على شيء من التأقلم مع طبيعة الحياة الشاقة التعيسة، وعلى ضخ جرعات من السعادة فيها.

والنقطة الأخيرة المهمة، هي أن هناك شبه إجماع واسع عند كثير من فلاسفة ومفكري الهند، حول "اللا تعلق" بوصفه الدواء الناجع لكل عذابات الإنسان، فغالب متاعب هذا الكائن المسكين -في تصورهم- تنشأ وتتضاعف إما بتعلقه فيما لا يملكه ويعجز عن امتلاكه، أو عن تعلقه بما لا يمكنه تحقيقه من طموحات وأهداف أكبر من قدراته وإمكاناته.. مع ضرورة الانتباه هنا إلى أن إعجابي بكثير من توجهات هذه الفلسفة في هذا الشأن، لا يعني تأييدي لقتل الأحلام وواد الآمال الطبيعية كما قد يفهم البعض؛ وإنما يعني اقتناعي بضرورة "التوازن" ودراسة الجدوى ومدى إمكانية تحقيق أي طموح أو هدف، أو نيل أي مطلب، قبل إضاعة الأوقات فيه وفي السعي نحوه.

وهذا ما يجعل الباحث يصل إلى نتيجة نهائية مفادها أن الفلسفة الهندوسية التي انتهت سيرورة تطورها في نظرتها للحياة، إلى أن الحياة كلها شر كما أوضحنا سابقاً؛ فقد انتهى العقل الفلسفي الهندوسي -ممثلاً في الأوبانيشاد وغيره من نصوصهم الفلسفية المقدسة- إلى الحكم على أن كل الأعمال شر؛ لأنها ستعيد الإنسان إلى الحياة من جديد في أجسام مختلفة. ويرى الباحث أن ذلك

هو المرتكز الأساسي الذي جعلهم يقولون أنّ الإنسان شقي في دنياه بشكل كلي عام، مهما نال فيها من المتع والملاذات الجزئية والمؤقتة.

وخلاصة معتقدتهم في هذا الشقاء، هو أنّ الإنسان شقي تعيش في مختلف أطوار حياته؛ لأنه في (حياته الأولى) فريسة للمصائب والنكبات والكوارث والأخطار والأمراض والمتاعب، وهو قاصر عاجز عن الاستحواذ التام على جميع المتع والمسرات، وإذا حاز شيئاً منها فلأجل قصير جداً يستوجب الشفقة والرثاء، وإذا رحل عن هذه الحياة كان أكثر تعاسة وبؤساً، إذ هو ينتقل في الأجسام المختلفة من وضع إلى أوضاع، غير عارف بمصيره ولا متحقق من حظه؛ لأن كل مرحلة من مراحل حياته المتعددة تقذف به إلى المرحلة التي تليها قذفاً دون إرادة منه أو اختيار، وفوف ذلك هو مسؤول في كل مرحلة من هذه المراحل التناسخية أمام الآلهة مسؤولة قاسية، عن كل ما اقترف دون إرادته، أو وقع فيه من آثام وسيئات. ولذلك تنتهي الفلسفة البراهمانية إلى أنّ الطريقة الوحيدة للخلاص من كل ذلك هي (الوصول إلى السعادة الكبرى) عبر الامتزاج ببراهما، ويعلن الأوبانيشاد أنّ الوسيلة إلى هذا الاندماج أو الامتزاج هي اعتزال الأفعال نهائياً، وهذا لا يتم إلا بالمعرفة، فالمعرفة إذن -في فهم الباحث- هي وسيلة السعادة؛ لأنها ستزيل من قلب الإنسان الزيف الذي يجعله يتعلق بالدنيا، وستجعل الإنسان يقتنع بأنّ هدفه الأسمى هو اعتزال الحياة والتفرغ لاكتشاف السر الأسمى، لأن اكتشاف ذلك سينتهي به إلى النجاح في كسر دائرة التناسخ، والفوز بالاتحاد ببراهما حيث تكمن كل السعادة (غلاب، 1938).

خاتمة:

تتفق الفلسفتان الهندوسية والبوذية على خلود الروح وديمومتها الأبدية، فالهندوسية أو البراهمانية ترى وتؤمن أنّ الذي يموت هو جسد الإنسان فقط، أما الروح فلا تموت أبداً. ولا تختلف العقيدة البوذية عن العقيدة البراهمانية في هذه المسألة؛ فالموت عندهم حادث عارض يطلّ الجسد وحده ولا يقرب النفس؛ ولذلك تستغرب البوذية كيف يذكّر الموت والقتل من عرف أنّ النفس خالدة



أبدية الوجود. ولذلك تطالعنا كتبهم بقول "باسديو" وهو يحرض "آرجن" على القتال: "إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً، فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن بموتى، ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه، فإن الأرواح غير مائنة ولا متغيرة؛ وإنما تتردد في الأبدان على تغير الأزمان، من الطفولة إلى الشباب والكهولة فالشيخوخة، التي عقباها موت البدن ثم العودة إليه" (العودات، 1992). لعل هذا كان هو المسوغ الفعلي الذي دعا كلا من الفلسفتين الهنديتين إلى البحث في قضية السعادة والشقاء ومن حيث افتراض ضرورة التوصل إلى خلاص مطلق في الحياة (النيرفانا) عبر منظومة من القيم الأخلاقية التي يلزم الإنسان اتباعها لبلوغ السعادة بالطمأنينة. وهو الأمر الذي يجعل هذه الفلسفات أقرب الشيء كنوع من الاتجاه الفلسفي الصوفي، الذي يجد مقابلاً له في عقائد وممل أخرى.

المراجع

- أ.د محمد أحمد الخطيب، مقارنة الأديان، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة - عمان الأردن، ط2، 2009م = 1430هـ.
- أ.و.ف. توملين، فلاسفة الشرق، دار المعارف - القاهرة، ط2، 1994م.
- أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى: الهندوسية - الجينية - البوذية، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ط 11، 2000م.
- الأوبانيشاد كتاب الهندوس المقدس، ترجمة عبدالسلام زيدان، شمس للنشر والتوزيع - القاهرة، ط1، 2008م.
- جورج حلو وآخرون، الحكمة البوذية، مؤسسة نوفل - بيروت، ط1، 1997م.
- حامد عبدالقادر، بوذا الأكبر حياته وفلسفته، دار نهضة مصر - الفجالة، 1986م.
- د. علي زيعور، الفلسفة العملية والنظرية في الهند والصين، دار النهضة العربية - بيروت، ط1، 1426 هـ = 2006م.
- عبد الستار إبراهيم، الاكتئاب اضطراب العصر فهمه وأساليب علاجه، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، 1998م.
- كامل محمد محمد عويضة، بوذا والفلسفة البوذية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1414 هـ = 1994م.
- كلود ب. لفرنسون، البوذية، كلود ب. لفرنسون، البوذية، دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، ط1، 2008م.
- محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مطبعة البيت الأخضر بمصر، 1938م
- هنري أرفون، البوذية، المنشورات العربية - بيروت، 1405 هـ = 1985م.



المجلة الالكترونية الشاملة متعددة المعرفة لنشر الأبحاث العلمية والتربوية

العدد الثالث والثمانين شهر (ابريل) 2025

ISSN: 2617-9563

هنية مفتاح القماطي، الفكر الديني القديم – دراسة في نشأة المعتقدات الدينية، منشورات جامعة
قاريونس – بنغازي، ط1، 2003م.